الفصل الخامس

خضوع الخديو للاحتلال ١٨٩٨ ــ ١٩٠٦

١ ــ حادثة فاشودة واثرها على مصطفى كامل والخديو ٠

٢ ــ اتفاق السودان وموقف مصطفى كامل والخديو منه ٠

٣ ــ محاولات كرومر فصل الخديو عن الحركة الوطنية ٠

٤ ــ زيارة الخديو لندن ١٩٠٣

٥ ــ الاتفاق الودى وآثاره على الحركة الوطنية والخديو ٠

٦ ــ القطيعة بين الخديو ومصطفى كامل ١٩٠٤ ــ ١٩٠٦

٧ ــ حادث طابه وموقف الحركة الوطنية والخديو منها ٠

٨ ــ حادث دنشواى ودوره فى انعاش الحركة الوطنية ٠

obeikandl.com

obeikan.com

بعد أن وجد الخديو أن سياسته العلنية للاحتلال تسبب له الاضرار ، وتؤدى الى تقليص نفوذه أمام المعتمد البريطانى كرومر بدأ فى اتخاذ طريق الوفاق الظاهرى والمقاومة السرية ، ولكن هذه السياسة لم تدم طويلا نظرا ليأسه من أى تعضيد يأتيه من أوربا وخصوصا فرنسا التى لم تكن جادة فى اتباع سياسة متشددة تهدف الى اجلاء الانجليز عن مصر ، وبعد أن رأى أن فرنسا تشكل سياستها فى مصر مع ما يتوامم ومصالحها خصوصا بعد فاشودة وما تبعها من تنازلات على حساب مصر كان أخطرها الاتفاق الودى الذى تعهدت فيه فرنسا بعدم مطالبة انجلترا بموعد للجلاء عن مصر فى سبيل أن تترك انجلترا لفرنسا اليد الطولى فى مراكش .

وقد أدى ذلك الى تغيير سياسة الخديو تجاه الاحتلال وخضوعه لارادة كرومر مما جعل الحركة الوطنية فى حيرة خصوصا وانها كانت تتخذ من الخديو أداة هامة فى الصمود أمام الاحتلال ، وفيما يلى نعرض للمواقف التى جعلت الخديو يفقد الأمل فى مساعدة أوربا له ، وصمود الحركة الوطنية رغم المصاعب التى بثها الاحتلال للقضاء عليها .

(1) حادثة فاشودة واثرها على مصطفى كامل والخديو :

يرجع اهتمام فرنسا بمنطقة فاشودة الى أهميتها من الوجهة الحربية والجغرافية فهى تعد مفتاح النيل الأعلى ، وتقع على ملتقى الطرق الموصلة من الخرطوم والحبشة الى جنوبى السودان ، وعلى مقربة من ملتقى روافد النيل ، ومن يملكها يضمن النفوذ على شمالى السودان وجهات خط الاستواء [1] .

(١) الرافعى : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ، ص ١٢٢

ونظرا لتزايد التنافس الاستعمارى بين انجلترا وفرنسا عهدت فرنسا الى الكابتن مارشان Capitane Marchand بالزحف على فاشودة بقصد احتلال مركز هام فى أعالى النيل تساوم به انجلترا على الدخول فى مؤتمر أوربى تطرح فيه مسألة الجلاء عن مصر وتحديد مصير السودان المصرى .

وقد سار مارشان على رأس كتيبة من الجند قاصدا فاشودة فعقد اتفاقا مع مشايخ الشلك تم بمقتضاه بسط حماية فرنسا على بلادهم(٢) كما استطاع الوصول الى فاشودة واحتلالها فى ١٠ يوليه ١٨٩٨ وقد أدى ذلك الى حدوث أزمة سياسية بين انجلترا وفرنسا اتهمت فيها انجلترا الفرنسيين بالاعتداء على حقوق مصر باحتلالهم بلدا مصريا ورفعهم العلم الفرنسى على أملاك الخديو (٣) كما أصدرت الحكومة البريطانية أوامرها الى كتشنر بالاسراع الى فاشودة ورفع العلم المصرى عليها (٤) فسار كتشنر اليها مرتديا زى الطربوش (٥) ، كما أوعزت الحكومة البريطانية الى الحكومة المصرية بأن ترسل برقية الى لندن تطلب فيها رد جميع الأراضى السودانية الى السيادة المصرية وعلى أثر ذلك اشتدت الأزمة بين انجلترا وفرنسا ، وكان من المنتظر أن يؤدى ذلك اما الى صدام بين الدولتين أو الى تمسك فرنسا بموقفها فيفتح باب المسألة المصرية ، وتضطر انجلترا الى الجلاء عن مصر فى نظير جلاء الفرنسيين عن فاشودة (٦) ، ونتيجة لذلك قويت آمال المصريين فى الاستقلال ورحبت بعض الصحف بقدوم مارشان الى

---

(٢) على ابراهيم عبده : المنافسة الدولية فى أعالى النيل ١٨٨٠ — ١٩٠٦ . القاهرة — الانجلو المصرية ١٩٥٨ ، ص ٢٧١

(٣) الرافعى : المرجع السابق ، ص ١٢٤

(٤) أحمد شفيق : حوليات مصر السياسية ج ١ ، ص ٣١

(٥) الأهرام : فى ١٩٦٩/٣/٧ . دراسة قام بها مركز الدراسات التاريخية بالأهرام .

(٦) الرافعى : المرجع السابق ، ص ١٢٤

شواطىء النيل وعبرت عن ابتهاجها بذلك [٧] كما تهكمت احدى الصحف على طلب الحكومة المصرية من انجلترا رد الأراضى التى احتلها مارشان الى مصر فذكرت صحيفة (لوكوربيه دوريان) تحت عنوان « مسرحية هزلية » أن الحكومة المصرية التى أرسلت البرقية ما هى الا لورد كرومر الذى يتحدث نيابة عنها [٨] .

وقد وصل التوتر فى العلاقات بين انجلترا وفرنسا الى درجة الاستعداد للحرب ، وقد حاول دالكاسيه وزير خارجية فرنسا اقناع انجلترا بالدخول فى مفاوضات مع فرنسا قبل الجلاء عن فاشودة ، ولكن الحكومة البريطانية تمسكت بضرورة الجلاء عن فاشودة قبل الدخول فى أى مفاوضات ، ولما لم تكن فرنسا مستعدة للمخاطرة بالحرب مع انجلترا من أجل مصر فقد اضطرت الى التراجع والتسليم بمطالب الحكومة البريطانية فأرسلت تعليماتها الى مارشان فى ٣ نوفمبر ١٨٩٨ بالانسحاب من فاشودة [٩] .

ونتيجة لتسليم فرنسا للانجليز فى فاشودة أصيبت الحركة الوطنية بزعامة مصطفى كامل بصدمة عنيفة نظرا لأنها كانت تضع فرنسا ضمن آمالها فى اجلاء الانجليز عن مصر فاتضح للمصريين المتعلقين بالأمل فى مساعدة فرنسا أنه لا جدوى من مساعدتها ، وبالرغم من ذلك فان هذه الحادثة لم تفت فى عضد مصطفى كامل بل ضاعفت من جهاده وقد أوضح ذلك قائلا « ولكنى ثابت على خطتى حتى الممات » ورغم جنوح معظم رجالات مصر الى الولاء للاحتلال واكتساب رضاه فان مصطفى كامل طالب المصريين بالتكاتف والاتحاد من أجل اجلاء الانجليز عن مصر بقوله « الأمر بيدنا وانه لو اتحد

(7) La Réforme : 9 Septembre 1898.
(8) Le Courrier d'Orient : 7 Novembre 1898.
(9) Langer : op. cit., p. 538.

مائة منـا لاهتزت الأرض قاطبـة لصوتهم فما بالك لو اتحدت الأمة المصرية كلها [١٠] » .

ومع ذلك فان مصطفى كامل لم يستطع اخفاء أثر فاشودة على أبناء وطنه فشرح فى رسالة له الى أخيـه أثرها بقوله « ان الأحوال السياسية سيئة للغاية بعد مسألة فاشودة » وعن علاقة مصطفى كامل بالخديو بعد فاشودة ، فبالرغم من أن الخديو قد توقف عن مقـاومة الاحتلال وأخذ يذعن للأمر الواقع ويتودد للاحتلال ، وكان أول مظهر لهذه السياسة زيارته للندن عام ١٩٠٠ تلك الزيارة التى آلمت الوطنيين كثيرا فان مصطفى كامل قد التمس له العذر بسبب فاشودة [١١] وظلت علاقته به ودية ، وحاول ألا تؤثر هذه الحادثة على علاقته بالخـديو حيث كان يعى الدرس الذى لقنه له عبد اللـه النديم والذى أوضحه فى كتابه المسألة الشرقية بقوله ان الشقاق سبب ضياع الأمم وسبب دمارها .. فلولا الشقاق بين الحزب العرابى وتوفيق باشا ما كبرت الحوادث وتجسمت وتدخلت انجلترا فى الأمـر .. واحتـل الانجليز مصرنا العزيزة [١٢] » .

وعلى كل حال فانه يمكن اجمال نتائج حادثة فاشودة على كل من الخديو والحركة الوطنية فيما يلى :

١ — تغير موقف الخديو ازاء الاحتلال فبعد أن كان يعتمد على فرنسا فى مساندته ضد المعتمد البريطانى كرومر أخذ يتجنب الدخول فى أزمات مع الانجليز بل أخذ يتودد اليهم ويحاول أن يكون فى وفاق معهم .

---

(١٠) الرافعى : المرجع السابق ، ص ١٢٧

(١١) على فهمى كامل : رسائل مصرية فرنسية ، ص ٦٢ رسالة من مصطفى كامل الى جولييت آدم بتاريخ ٢ يونيه ١٩٠٠

(١٢) مصطفى كامل : (المسئلة الشرقية) القاهرة . مكتبة الآداب — المطبعة الأولى ١٨٩٨ ، ص ٢٥٨

٢ — تركت حادثة فاشودة أسوأ الأثر فى نفوس المصريين وعلمتهم أن الكفاح من أجل الجلاء مرير ، وأنه لابد من الاعتماد على أنفسهم قبل أى شىء (١٣) حيث أن فرنسا قد تخلت عن معارضتها لانجلترا فجنح معظم رجالات مصر الى الولاء للاحتلال ومحاولة اكتساب رضاه اذ رأوا فى حادثة فاشودة برهانا واضحا على رسوخ أقدام الانجليز فى مصر (١٤) .

٣ — تعتبر حادثة فاشودة ضربة قاضية للنفوذ الفرنسي فى مصر فالمصريون الذين كانوا يعلمون أولادهم اللغة الفرنسية عدلوا عنها الى الانجليزية (١٥) وليس معنى ذلك أن المصريين أصبحوا أصدقاء للانجليز ولكن يرجع ذلك لرد فعل فاشودة وقد أوضح مصطفى كامل هذا الأثر فى رسالة له الى جوليت آدم حيث قال « ان السياسة الفرنسية تعكس أمرى وتجعلنى ذاهلا أمام التناقض الغريب المسطور فى تاريخها ، عجبا ! أنسيت فرنسا فاشودة . ان سياسة الحكومة الفرنسية لم تعمل عملا واحدا يجعلنى آملا فيها (١٦) » كما أوضحت جوليت آدم اغلاط السياسة الفرنسية فى فاشودة فقالت « فاشودة ! انها الضربة القاضية! لقد قلت فى رسائلى قبلا ان غير واحد من ساسة فرنسا قد أفهم الخديو والوطنيين المصريين أن فرنسا ستتدفق لجيالح مصر سريعا وبصفة حاسمة ، وأبانوا لهم أن بعثة مارشان فى المنطقة لرأية استقلال مصر فصاروا جميعا يعتقدون أن تحرير مقاطعة من السودان ، ولكن حادثة فاشودة قضت على آمال الوطنيين المصريين (١٧) » .

---

(١٣) احمد رشاد : المرجع السابق ، ص ١٤١
(١٤) الرافعى : المرجع السابق ، ص ١٢٥
(١٥) احمد رشاد : المرجع السابق ، ص ١٦٤
(١٦) على فهمى كامل : المرجع السابق ، ص ٦٩
(١٧) الرافعى : المرجع السابق ، ص ١٢٥

٤ — كانت حادثة فاشودة نصرا كبيرا للاحتلال وعملائه فى مصر ومع أنها بعثت اليأس فى نفوس كثير من الوطنيين وأخمدت جذوة الوطنية فى نفوسهم ، فانها لم تخمد جذوة الوطنية فى نفس مصطفى كامل الذى ضاعف من جهاده وكفاحه بمقدار ما ازدادت المصاعب فى طريقه فأخذ يفكر من ذلك الحين فى الاعتماد على الرأى العام وهداه تفكيره الى انشاء صحيفة اللواء لتغذى نفوس المصريين بمبادىء الوطنية والأمل والجهاد كما دعا الى نشر التعليم القومى وتربية النشء تربية دينية (١٨) .

٥ — رغم يأس الخديو من مقاومة الاحتلال فان مصطفى كامل استطاع أن يجدد الأمل فى نفوس المصريين حيث حمل خطة صادقة على اليأس ودعا كل مصرى الى القيام بواجباته الوطنية .

وهكذا كانت فاشودة نقطة تحول أمام الحركة الوطنية المصرية التى رأت أن فرنسا لا تهتم بالقضية المصرية الا اذا كان ذلك متفقا مع مصالحها الخاصة ، فآثر مصطفى كامل الاعتماد على الرأى العام المصرى وان كان لم يفقد الأمل فى مساعدة أوربا .

اتفاق السودان وموقف مصطفى كامل والخديو منه :

سعت بريطانيا بعد استرجاع السودان الى مد سيطرتها عليه ولكن المشكلة التى واجهت كرومر ، وكان لابد من ايجاد حل لها هى الكيفية التى يحكم بها السودان وهل يكون حكمه حكما انجليزيا أم مصريا ، ولما كان مركز انجلترا فى مصر لا يزال يلقى مقاومة من بعض الدول الأوربية فقد استقر الرأى على أن يكون حكم السودان مشتركا بين الانجليز والمصريين ففى ٤ سبتمبر ١٨٩٨ أرسلت وزارة الخارجية البريطانية مذكرة الى الحكومة المصرية تذكر فيها « أنه بالنظر الى

---

(١٨) الرافعى : المرجع السابق : ص ١٢٦ — ١٣١ .

المساعدات المادية التى قدمتها الحكومة البريطانية الى الحكومة المصرية فى الناحيتين الحربية والمالية فقد قررت حكومة جلالة الملكة رفع العلم البريطانى بجانب العلم المصرى فى الخرطوم ... وأنها تعتبر لصوتها الغلبة فى جميع المسائل المتعلقة بالسودان ، وأنها تبعا لذلك تنظر أن تلتزم الحكومة المصرية بكل نصيحة تقدمها اليها الحكومة البريطانية فى شأن المسألة السودانية [١٩] » .

ونتيجة لذلك وقعت اتفاقية الحكم الثنائى فى السودان بين بريطانيا ومصر والذى بمقتضاها خول لبريطانيا رسميا حق الاشتراك فى ادارة شئون الحكم فى السودان ، ورفع العلم الانجليزى الى جانب العلم المصرى فى كافة أرجائه ، وتعيين حاكم عام للسودان بناء على طلب الحكومة البريطانية ، مما أدى الى سلخ السودان عن مصر واستئثار الانجليز بادارته [٢٠] .

وقد فوجئت الأمة المصرية بتوقيع هذه الاتفاقية ، فاستنكرتها واعتبرتها سلبا لحقوق مصر فى السودان فقد هاجمها مصطفى كامل واعتبرها برهانا جديدا على عدم مراعاة انجلترا للعهود ، الشىء الذى يعتبره المصريون جميعا باطلا لأنه مخالف للأنظمة الأوربية والقوانين الدولية [٢١] كما اعتبرت جريدة اللواء يوم ١٩ يناير الذى وقعت فيه الاتفاقية أكبر أيام الشقاء فى تاريخ مصر وأسوأ تذكار يهيج فى نفوس

---

(١٩) رئاسة مجلس الوزراء ، السودان من ١٣ فبراير ١٨٤١ الى ١٣ فبراير ١٩٥٣ ، ص ٥

(٢٠) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ، ص ١٣٢
وعن نصوص الاتفاقية انظر :
د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان — تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر . القاهرة — دار المعارف ، ص ٤٨٨ وما بعدها .

(٢١) على فهمى كامل : مصطفى كامل فى ٣٤ ربيعا ج ٩ ، ص ٩٥

المصريين الأحرار الآلام والأشجان [٢٢] ثم طالبت المصريين باعتبار هذه الاتفاقية باطلة [٢٣] أما عن الخديو فقد قبل الاتفاقية نظرا لضعف مركزه لو انفرد بالمعارضة وخشية ارهاب كرومر له .

وبتحليل لهذه الاتفاقية يتضح بطلانها من الناحيـــة القانونيـــة للاسباب الآتية :

١ — أن مصر ليس لها الحق فى عقد مثل هذه الاتفاقية لأنهـــا تخالف نصوص الفرمانات السلطانية الصادرة الى الخديو [٢٤] فمصر ولاية من ولايات الدولة العثمانية لا يحق لها التنازل عن شبر واحـــد من أرض السودان أو ملحقاتها ، كما أن الخديو ليست له الصفة التى تخوله التوقيع على هذه الاتفاقية لأنه حاكم ولاية تابعة للدولة العثمانية وسلطاته مقيدة بالفرمانات السلطانية [٢٥] .

٢ — ان عقد هـــذه الاتفاقية يعتبر مخالفا لمعاهدة لنـــدن ١٨٤٠ لأن استيلاء انجلترا على بعض منـــاطق السودان على أثر اخلائه ثم الاشتراك فى ادارته يعد اعتـــداء على ممتلكات الدولة العثمانيـــة كما يتناقض مع معاهدة باريس المبرمة فى مارس ١٨٥٦ بشأن المحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية وكذلك معاهدة برلين المبرمة فى يوليه ١٨٧٨ وبروتوكول النزاهة الصادر عن مؤتمر الآستانة فى سنة ١٨٨٢ وهذه الوثائق تعرفها انجلترا جيدا لأنها احدى الدول الموقعة عليها [٢٦] .

٣ — ان شرط ســـلامة المعـــاهدات هو توافر عنصر الرضا بين الطرفين المتعاقدين وهذا لا يتفق مع حالة مصر فالخديو لم يكن راضيا

---

(٢٢) اللواء : العدد ١٦ من السنة الاولى فى ٢٠ يناير ١٩٠٠ مقال لمصطفى كامل تحت عنوان يوم ١٩ يناير .
(٢٣) نفســـه .
(٢٤) على فهمى كامل : المرجع السابق ج ٩ ، ص ٩٥
(٢٥) د. محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ، ص ٥٣٤ — ٥٣٥
(٢٦) نفسه : ص ٥٣٥ — ٥٣٦

عن هـذه الاتفاقية ، ولم يوافق عليها الا بعد ضغوط شديدة ، كما أن مصر المحتلة بالقوات الانجليزية وارادتها ليست فى يدها فكيف يكون لها حرية التصرف فى التوقيع على هذه الاتفاقية (٢٧) .

٤ — انفردت انجلترا بالسيطرة على السودان ذلك لأن المادة الثالثة من الاتفاقية تنص على تركيز الرئاسة العليا فى يد « حاكم عموم السودان » الذى يعين بأمر الخديو وبناء على طلب الحكومة الانجليزية ولا يجوز عزله الا بموافقة لندن (٢٨) ومن ثم يتضح أن الادارة الثنائية كانت شكلية وأن الأمر كله كان بيد انجلترا فتعيين حاكم عموم السودان أو عزله مشروط بموافقة بريطانيا (٢٩) .

وهكذا كان توقيع اتفاقية السودان بداية استكانة الخديو للاحتلال بعد أن رأى عدم جدوى المقاومة خصوصا بعد تخلى فرنسا والدول الأوربية عنه فى الوقوف لمواجهة الاحتلال ، وكان أثر ذلك تناقص شعبية الخديو ، واضعاف مركزه أمام الوطنيين ، وتدهور علاقته بالسلطان الذى اعتبر موافقة الخديو على الاتفاقية نقضا للفرمانات السلطانية التى تحدد مركزه .

كل هذا جعل الخديو مستعدا للتعاون مع كرومر على أساس أن يرد له نصيبه فى حكم البلاد .

---

(٢٧) د. راشد البراوى : مجموعة الوثائق السياسية ج ١ . المركز الدولى لمصر والسودان وقناة السويس . القاهرة — النهضة المصرية — الطبعة الأولى ١٩٥٢ ، ص ١٠٧

(٢٨) الأهرام : فى ٧ مارس ١٩٦٩ — دراسة قام بها مركز الدراسات التاريخية لمصر المعاصرة بالاهرام .

(٢٩) د. راشد البراوى : المرجع السابق ، ص ١٠٩

٣ — محاولات كرومر فصل الخديو عن الحركة الوطنية :

اتبع كرومر وسائل عديدة لاخماد الحركة الوطنية أهمها الفصل بينها وبين الخديو والعمل على كسب الأخير الى جانب الاحتلال وقد ساعد على ذلك عاملان هما :

١ — تمرد فرقتين من الجيش المصرى الموجود فى أم درمان :

ففى يناير ١٩٠٠ تمردت فرقتين من الجيش المصرى لأسباب أهمها انتشار الشائعات بأن الجيش المصرى الموجود بالسودان سيرسل الى جنوب أفريقية بعد هزائم الانجليز هناك وأيضا اساءة معاملة الضباط المصريين والتفرقة بينهم وبين الضباط الانجليز (٣٠) .

ولما أمر النائب العام بتجريد الجيش من سلاحه وذخيرته أبت الفرقتان اطاعة الأمر ، وقد سجن الضباط المتهمون بالتحريض على التمرد وأحيلوا الى مجلس تحقيق لمحاكمتهم (٣١) .

وقد شك الانجليز فى أن الخديو وراء هذا التمرد ، لذلك أجبروه على توجيه خطاب شديد اللهجة لمدبرى الحادث كما ضغطوا عليه للتصديق على الأحكام العسكرية التى صدرت بطرد سبعة من الضباط المصريين من خدمة الجيش ، وقراءة خطاب وضع كرومر مسودته يستنكر فيه الخديو مسلك المتمردين ويعلن تأييده للسردار وأن ينشر هذا الخطاب كأمر يومى يقرأ فى وحدات الجيش ثلاثة أيام متوالية (٣٢) .

وكان هدف كرومر من ذلك هو اجبار الخديو على التنصل علنا من

---

(٣٠) د. المسدى : محاضرات فى تاريخ مصر المعاصر .
(٣١) الرافعى : المرجع السابق ، ص ٣٤٠
(٣٢) المجلة التاريخية المصرية . المجلد الثانى والعشرون ١٩٧٥ مقال للدكتور المسدى تحت عنوان « الاحتلال والحركة الوطنية فى مصر فى أوائل القرن العشرين » ص ٩٠

نشاط الحركة الوطنية ، وفعلا نجح كرومر فى ذلك فقد استحضر الخديو الضباط وعنفهم على ما وقع منهم ، وأبدى تأييده للسردار ونجت باشا [٣٣] .

٢ — زيارة الخديو الرسمية الى لندن فى صيف ١٩٠٠ :

حاول الخديو الاتصال مباشرة بالحكومة البريطانية والأسرة المالكة فقام فى مساء ٣ يونيه ١٩٠٠ بمغادرة ثغر الاسكندرية الى انجلترا لزيارة ملكتها ، وأقام مصطفى فهمى رئيس النظار نائبا عنه مدة غيابه [٣٤] . وقد تأثر الخديو بالحفاوة التى لقيها هناك فقد استقبلته الملكة فيكتوريا وأهدت اليه وسام فيكتوريا الأكبر ، وقامت بتقليده اياه امعانا فى اكرام وفادته ، كما أنعمت على مرافقيه ورجال حاشيته بأوسمة ونياشين وقد لثم الخديو يدها وألقى خطابا أعرب فيه عن أمله فى أن تسود العلاقات الطيبة بين مصر وانجلترا وأن تسير بخطى مطردة [٣٥] .

ونتيجة للحفاوة التى لقيها الخديو أعرب فى تصريح له الى فارس نمر صاحب المقطم بأنه أصبح يفهم الانجليز أكثر مما مضى كما أعلن عن سروره من الزيارة وأمله فى أن تكرر ، كما أشار الى احترامه لكرومر ووجوب التفاهم معه ، وأنه لم يحدث بينهما أى خلافات الا حين يتدخل آخرون بينهما لذلك فهو يفضل التعامل معه رأسا ، ومن هنا أفصح الخديو عن الثمن الذى يريده للتعاون مع الانجليز وهو أن يكون له نصيب فى ادارة البلاد [٣٦] .

---

(٣٣) الرافعى : المرجع السابق ، ص ٣٤٠

(٣٤) الهلال : السنة الثانية جـ ١٧ ، ١٨ فى ١٥ يونيو ١٩٠٠ ص ٥١٤ تحت عنوان « الجناب الخديو وجده ابراهيم » .

(٣٥) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢ القسم الأول ، ص ٣٣٠ — ٣٣٨

(٣٦) د. المسدى : محاضرات فى تاريخ مصر المعاصر .

وقد كانت هـذه الزيارة وهذا التصريح أكبر الأثر فى استياء الوطنيين من الخديو ، ولما كانت الحركة الوطنية تعتمد على تأييد الخديو فان هـذا التأييد لم يستمر بانحياز الخـديو الى الانجليز ، كما امتد الخضوع للانجليز وعميدهم كرومر الى بعض العناصر الوطنية مثال ذلك أن جريدة المؤيد بدأت تفتر حملاتها تدريجيا ضد الاحتلال كما امتنع صاحبها عن نشر مقالات مصطفى كامل بها رغم أنه كان يعهد اليه من قبل بادارتها أثناء غيابه كما حدث فى أكتوبر ١٨٩٩ ومع ذلك فان مصطفى كامل ومجموعته لم يقروا موقف خضوع الخديو للاحتلال بل عبروا عن أسفهم لموقفه ونصحوه بالولاء للسلطان وللحركة الوطنية، وان كانواقد التمسوا له العذر بعد فاشودة[٣٧] وأخذ مصطفى كامل فى جذب المصريين للالتفاف حول الخديو لمقاومة الاحتلال عن طريقه لما له من تأثير ونفوذ .

وهكذا بدأت سياسة كرومر فى التفريق بين الخـديو والحـركة الوطنية تؤتى ثمارها من جانب الخديو الذى توقف عن القيام بأى عمل معاد للأحتلال بينما ظل مصطفى كامل متمسكا بولائه للخـديو مقدرا صعوبة موقفه خصوصا بعد تخلى أوربا وخصوصا تخلى فرنسا عنه .

زيارة الخديو لندن ١٩٠٣ :

حاول الخديو التخفيف من سياسة كرومر تجاهه فقام بالاتصـال المباشر بملك وحكومة بريطانيا وقد شجعه على ذلك الحفاوة التى قوبل بها أثناء زيارته الأولى عام ١٩٠٠ ، ورغبته فى حضور حفل زواج صديقه الدون جورست المستشار المـالى الانجليزى فى مصر [٣٨] .

---

(٣٧) على فهمى كامل : رسائل مصرية فرنسية ، ص ٦٧ ، رسالة من مصطفى كامل الى جوليت آدم بتاريخ ٢١ يونيه ١٩٠٠ .

(٣٨) حضر الخديو هذا الحفل ، وقدم للعروس هدية ثمينة وكانت عبارة عن مجموعة اساور وخاتم ، وكلها من الزبرجد المحلى بالمـاس . احمد شفيق : المرجع السابق ج ٢ ، ص ١٤ — ١٥

وقد رحبت الصحف البريطانية بهذه الزيارة وأكثرت من الكتابة عنها ، ولكى يثبت الخديو حسن نواياه تجاه الانجليز صحب معه الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد ، وطلب منه الاتصال بالصحافة الانجليزية والدعوة الى مزيد من التعاون بين مصر وبريطانيا [٣٩] يضاف الى ذلك أن الخديو استقبل فى لندن رجل التجارة والمال الانجليزى أرنست كاسل E. Castle الذى كانت له علاقات مالية متعددة مع مصر منها امتلاكه ٥٠٪ من رسمال شركة الدائرة السنية ومن رأسمال البنك الأهلى المصرى وكان يعمل للحصول على امتيازات جديدة من مصر، وقد أقرض « كاسل » الخديو مبلغ نصف مليون جنيه بفائدة ٤٪ كما ساعد جورست الخديو على منحه تسهيلات مالية كبيرة على حساب الحكومة المصرية ، وعلى هذا الأساس استحوذ الخديو على مناطق واسعة من مربوط مقابل مبالغ ضئيلة من المال [٤٠] ، وذلك فى مقابل تسهيل الخديو اقامة بعض المشاريع المالية الانجليزية فى مصر مثل اعطاء امتياز السكك الحديدية لشركة انجليزية ، والسماح لكاسل بشراء مئة الف فدان من أراضى الوجه البحرى[٤١] .

أما عن أثر هذه الزيارة من الناحية السياسية فقد قربت وجهات النظر بين الخديو وبين الحكومة البريطانية التى بدأت تعيد حساباتها ومواقفها تجاه تشدد كرومر نحو الخديو .

ونتيجة للمكاسب التى حققها الخديو فى انجلترا تشجع مرة أخرى على مضايقة كرومر ، فأخذ يعيد علاقاته مع مصطفى كامل والعناصر المناهضة للاحتلال خصوصا وان الملك ادوارد السابع ملك انجلترا كان

---

(٣٩) المؤيد : فى ٨ ، ٩ يوليه ١٩٠٣ وايضا .
احمد شفيق : المرجع السابق ، ص ١٤ — ٢١
(٤٠) د. المسدى : المرجع السابق .
(41) Blunt : My Diaries : Vol 2, p. 90 - 91.

قد أظهر استياءه من كرومر لعدم معاونته كاسل فى تنفيذ مشروعاته المالية فى مصر (٤٢) .

وهكذا كانت زيارة عباس الى لندن ذات أثر كبير فى مد جسر من العلاقات ذات المصالح المتبادلة بين الخديو وملك بريطانيا مما مهد فيما بعد الى تراجع الحكومة البريطانية عن تأييد سياسة كرومر والبحث عن خلف له ، يكون أكثر مواءمة فى التعاون مع الخديو ، وكان تعيين الدون جورست Eldon Gorst بداية هذه السياسة .

٥ ــ الاتفاق الودى وآثاره على الحركة الوطنية والخديو :

بعد أن تولى الملك ادوارد السابع عرش انجلترا (٤٣) بدأت محاولات الانجليز فى التقرب من فرنسا ، وكان فاتحة ذلك زيارة ملك انجلترا لباريس فى مايو ١٩٠٣ ، وتبعها زيارة رئيس جمهورية فرنسا لانجلترا (٤٤) . وعقب ذلك قيام الحكومتين بتسوية المسائل المختلف عليها بينهما وأسفرت مفاوضاتهما عن ابرام الاتفاق الودى بينهما فى ٨ أبريل ١٩٠٤ ، وقد لعب اللورد كرومر دورا هاما فى انجاز هذا الاتفاق الذى كانت أبرز نصوصه لاعلان انجلترا بأنها لا تنوى تعديل الأوضاع السياسية فى مصر ، كما أنها لا تعرقل عمل فرنسا فى مراكش ، واعلان فرنسا بأنها لا تتدخل فى عمل انجلترا بمصر لا بطلب تحديد موعد للجلاء عنها ولا بأى طريقة أخرى كما أنها لا تنوى ادخال تعديلات فى أحوال المغرب السياسية .

وبهذا الاتفاق اطمأنت انجلترا على مركزها فى مصر ، وحصلت

---

(42) Blunt : op. cit., p. 98.

(٤٣) تولى الملك ادوارد السابع عرش انجلترا عقب وفاة والدته الملكة فيكتوريا عام ١٩٠١

(44) Zetland : op. cit., p. 280.

على موافقة قانونية على وضع كان من قبل غير شرعى الى حد كبير[٤٥] وأصبحت فى مأمن من الارتباكات الدولية ، وأخذ الانجليز يوطدون مركزهم فى وادى النيل لدرجة أصبحت فيها المسألة المصرية على حسب تعبير كرومر ذات طابع داخلى [٤٦] .

أما عن نتائج هذا الاتفاق المعنوية عند المصريين فقد أدى الى صدمة عنيفة لديهم ، وأغلق الباب فى وجوههم تجاه فرنسا بعد أن كانوا يعلقون عليها آمالا واسعة ، وبعد أن كانت عنصرا هاما فى السياسة الوطنية المصرية ، وكان المصريون يرجون تأييدها كلما تحزب الأمر بينهم وبين الانجليز [٤٧] .

كما ترجح اليأس فى النفوس ، وانصرف الناس عن متابعة الحركة الوطنية وجنح معظمهم لسياسة الخضوع والاستسلام للانجليز [٤٨] . وانصرف الناس عن الحديث عن المسألة المصرية مما دفع بعض الصحف الى مطالبة المصريين بالابتعاد عن اليأس وأن يضعوا نصب أعينهم استقلال بلادهم [٤٩] .

ومع أن مصطفى كامل لم يتراجع فى وطنيته أمام الاتفاق الودى ولم يتزعزع يقينه فى الجهاد ، فان كتاباته كانت تنطق بالسخط على هذه الاتفاقية فقد أرسل الى جوليت آدم يشكو الحقيقة المؤلمة بقوله « ان خطة فرنسا .. قد دفعت — بلا جدال — الانجليز الى ظلمنا أشد مما كان » كما أوضح لها أن هذه الاتفاقية جلبت على مصر أسوأ

---

(45) Cromer : Report on the finances, administration, and Condition of Egypt and Sudan in 1904. April 1905 p. 4.

(٤٦) احمد رشاد : المرجع السابق ، ص ١٧٨

(٤٧) د. ابراهيم عبده : جريدة الأهرام — تاريخ مصر فى خمس وسبعين سنة . القاهرة — دار المعارف ١٩٥١ ، ص ٢٥٣

(٤٨) الرافعى : المرجع السابق ، ص ١٧٣

(٤٩) الأهرام : فى ٨ أبريل ١٩٠٤

النتائج وأن المصريين أصبحوا يكرهون فرنسا أكثر من انجلترا نفسها[٥٠] وأن فرنسا كانت أول دولة صادقت على الاحتلال بعقد رسمى [٥١] .

وبالرغم من أن عزائم البعض قد وهنت فان مصطفى كامل لم يستكن بل شرع فى جهاده يرفع شعار لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس ، ومضى بثبات وجلد [٥٢] متذرعا بالأمل فى التفاف الشعوب الاسلامية حول دولة الخلافة من أجل الدفاع عن مصر .

أما عن الخديو عباس فقد آثر السلامة وانطوى تحت لواء الاحتلال ، وأخذ يسترضى كرومر فحضر لأول مرة الاحتفال بعيد ميلاد الملك ادوارد السابع فى ٩ نوفمبر ١٩٠٤ ، ووقف تحت العلم البريطانى بجوار كرومر ، وشهد العرض حتى نهايته فكان لحضوره هذا الاحتفال الذى يمثل الاحتلال الأجنبى تمثيلا مهينا للكرامة المصرية أثر أليم فى النفوس لذلك انتقده الوطنيون مما اضطر المعية الى اصدار بلاغ رسمى تنسب فيه حضور الخديو الى مجرد الصدفة حيث كان بسراى عابدين يوم العرض [٥٣] .

والواضح أن الخديو قد غير سياسته تجاه الانجليز عقب الاتفاق الودى تغييرا جوهريا ، وبلغ من استسلامه لهم موافقته على تعيين ياور انجليزى له فى عام ١٩٠٥ وهو وطسن باشا [٥٤] وقد عبر مصطفى كامل عن ألمه لما حدث فى خطاب له الى جوليت آدم فقال عين الانجليز ياورا انجليزيا فى معية الخديو ، وسيصير فى أقرب وقت رئيسا للديوان أى وزيرا للجند فى بيت الخديو ، وهو مبدأ التداخل البريطانى فى

---

(٥٠) على فهمى كامل : المرجع السابق ، ص ١٣٥ خطاب من مصطفى كامل الى جوليت آدم بتاريخ ١٠ مايو ١٩٠٤

(٥١) نفسه : ص ١٣٧

(٥٢) محمد حسين هيكل : المرجع السابق ، ص ٥٨

(٥٣) الرافعى : المرجع السابق ، ص ١٨٣

(٥٤) نفسه : ص ١٨٧

السراى ، وبذلك يكون حاكم مصر بعد بضع سنين محاطا ليل نهار بانجليز .. ومن ذلك تعلمين مقدار ألمى !! (٥٥) » .

وهكذا كان خضوع الخديو للاحتلال من الأسباب التى جعلت مصطفى كامل يفقد عنصرا هاما فى مساندة الحركة الوطنية ومع انه حاول ألا تصل علاقته بالخديو الى درجة القطيعة فان توالى الأحداث جعلت الأمور تصل الى حد القطيعة بينهما لمدة تصل الى عامين .

ونتيجة لكل ذلك أخذ اللورد كرومر يظهر بمظهر صاحب السيطرة الفعلية على البلاد فأخذ يزور الأقاليم ويقابل المديرين والأعيان كأنه الحاكم الفعلى للبلاد ، كما تقدم بنفسه الى الجماهير يخاطبهم فى الشئون العامة ويلقى عليهم النصائح والأوامر (٥٦) .

وهكذا كان للاتفاق الودى آثاره السلبية على الحركة الوطنية المصرية وعلى زيادة خضوع الخديو للاحتلال .

القطيعة بين الخديو ومصطفى كامل ١٩٠٤ — ١٩٠٦ :

أخذت بوادر الخلاف بين مصطفى كامل والخديو تنمو كلما زاد الخديو فى خضوعه للاحتلال ، ولما ثارت قضية زواج الشيخ على يوسف صاحب المؤيد فى يوليه ١٩٠٤ وذلك حين تزوج على يوسف من الآنسة صفية ابنة الشيخ السادات دون علم والدها ، رفع الشيخ السادات دعوى بالمحكمة الشرعية مطالبا التفريق بين الزوجين لعدم أهلية الزوج ، ورغم أن المحكمة قضت بالحيلولة بين الزوجين فان الخديو عمل على تأييد صاحب المؤيد من وراء ستار مما ضايق مصطفى كامل وزاد من ثورة الرأى العام على الخديو ، ولما سافر الخديو

---

(٥٥) على فهمى كامل : المرجع السابق ، ص ١٩١ — ١٩٥

(٥٦) اللواء : فى ٦ فبراير ١٩٠٥

الى ديفون [٥٧] للاستجمام زاره مصطفى كامل وصارحه برأيه فى مضار تأييده للشيخ على يوسف ولامه بلطف لتداخله فى هـذه القضية وأن ذلك سيسىء الى سمعته « خصوصا وأن الرأى العام كان ساخطا على الشيخ على لرغبته فى الزواج بالبنت رغم ارادة والدها [٥٨] » واشتد الأمر بينهما لدرجة أن الخديو قال لمصطفى كامل « رأى عام ايه ياشيخ هو فيه حاجة اسمها رأى عام أو أمة أنا ان لبست برنيطة ومشيت فى البلد ما حد يتكلم [٥٩] » ثم احتـد الخـديو قائلا لمصطفى كامل : « أنا ما أحبش تنصحنى أنا عارف الواجب على [٦٠] » .

وبعد هـذه المقابلة رأى مصطفى كامل أن يقطع علاقته بالخديو واعتزم الابتعاد عنه [٦١] . ولمـا أراد مصطفى كامل أن يكتب جوابا للخديو بشأن ذلك حاول فريد وبعض زملائه منعه ، ولكنه صمم على رأيه [٦٢] ولمـا عاد من أوربا الى مصر أرسل خطابا الى الخديو أوضح فيه أنه اعتزم الابتعاد عنه حتى لا يظن أحد أن عليه شيئا من المسئولية فى جهاده السياسى [٦٣] وقد أرسل مصطفى كامل صورة الخطاب الى الأهرام ثم نشره باللواء ونصه كالآتى :

---

(٥٧) ديفون : بلدة من اعمال فرنسا ، وعلى آخر حدودها المتاخمة لسويسرا ، وقد اشتهرت بحمامها البارد الكثير الفوائد فتصدها المصطافون، وكان الغرض من ذهاب الخديو عباس الثانى الى مياه حمام ديفون هو حفظ درجة اعتدال جسمه حتى لا ينمو بالسمنة التى هو مستعد لها ..

المؤيد : العدد ٣٣٧٤ فى ١٦ اغسطس ١٩٠٢ تحت عنوان « الجناب العالى الخديو فى مصيفه بديفون » .

(٥٨) دار الوثائق : مذكرات محمد فريد . الجزء الأول — القسم الأول ملف ١ ، ص ١

(٥٩) نفســه .

(٦٠) نفســه .

(٦١) الرافعى : المرجع السابق ، ص ٣٤٦ ، وايضا اللواء : العدد ١٥٥٠ فى ٢٥ أكتوبر ١٩٠٤ تحت عنوان « الى الجناب العالى » .

(٦٢) مذكرات محمد فريد : الجزء الأول — القسم الأول ، ص ١

(٦٣) الرافعى : المرجع السابق ، ص ٣٤٦

« مولاى : تشرفت فى ديفـــون بالمثـــول بين يدى سموكم يوم ٢٧ أغسطس المـــاضى ، ورفعت الى مقامكم السامى أن الحالة السياسية الحاضرة تقضى على أن أكون بعيدا عن فخامتكم وأن أتحمل وحدى مسئولية الخطة التى أتبعها نحو الاحتلال والمحتلين ، منعـــا لتكدير خاطركم الشريف ، ودفعا لمـــا عساه يقع من الخلاف والنزاع [٦٤] » .

ومن ذلك الخطاب يتضح مدى وطنية مصطفى كامل واخلاصه فى جهاده ففى الوقت الذى يتقرب فيـــه الخـــديو من المحتلين يستميت مصطفى كامل فى كفاحه ، وفى اللحظة التى تخلى عنه فيها بعض مواطنيه وتعاونوا مع المحتل ظل على مقاومته له باباء وشمم [٦٥] .

وقد عبر مصطفى كامل عن صعوبة الموقف فى خطاب له الى جولييت آدم ٢٦ ديسمبر ١٩٠٤ فبث لها همومه بقوله « انى أحضر مشـــهدا فظيعا من أفظع المشاهد ، ذلك هو سقوط وطنى ، ولو كنت لا أستطيع أن أتنفس الصعداء كل لحظـــة لقبرت من زمن بعيـــد ، انه لمن أشق الأعمال أن يجاهد المرء ضد الزمن والحوادث والناس ! وليس هناك شىء يؤلمنى أكثر من الانحطاط الأدبى الذى استولى على أولئك الذين كان يجب عليهم أن يكونوا أكبر الناس شمما وشهامة [٦٦] » .

كما أرسل لها خطابا بتاريخ ٩ مارس ١٩٠٥ قال فيه « انى أعمل واجدا فى الحركة والجهاد أجمل تعزية ، وقـــد أراد اللـــه أن أكون المصرى الوحيد الذى يرفع لواء الاستقلال [٦٧] » .

---

(٦٤) اللواء : العدد ١٥٥٠ من السنة الخامسة فى ٢٥ أكتوبر ١٩٠٤ تحت عنوان « الى الجناب العالى » .
الرافعى : المرجع السابق ، ص ٣٤٦
(٦٥) أحمد رشاد : المرجع السابق ، ص ١٩٤
(٦٦) على فهمى كامل : المرجع السابق . خطاب من مصطفى كامل الى جولييت آدم ، ص ١٦٥
(٦٧) نفســـه : ص ١٨٥

وقد عبر مصطفى كامل عن استقلاله عن الخديو بقوله « ان سمو الأمير بعيد عن الحركة الوطنية ، وان المجاهدين ضد الاحتلال مستقلون عن سموه كل الاستقلال [٦٨] » كما ذكر فى مقال آخر « لقد اتهموا الحزب الوطنى تارة بأنه موحى اليه من الدولة العليـة ، وطورا من ألمـانيا ، وتارة أخرى من سمو الخديو ، وقد سقطت التهمتان الأوليان من قبل وهذه الثالثة قد سقطت الآن معهـا ، فحان الأوان أن نهنىء أنفسـنا [٦٩] » .

ومن الواضـح أنه لم يكن ممكنا أن يستمر مصطفى كامل على اتصاله بالخديو ، لأن عباس الثانى قد عرف عنه عدم الاستقرار فى الميول والخطط والآراء [٧٠] ، كما أن الخديو رأى أن صلته بمصطفى كامل قد كلفته كثيرا فى علاقته بالانجليز ، لذلك أخذ فى الابتعاد عنـه خشية جلب مزيد من المتاعب له .

حادث طابة وموقف الحركة الوطنية والخديو منها :

خلاصة هـذه الحادثة أن تركيا أثارت الخلاف الذى أحدثته من قبل حين تبوأ عباس الثانى أريكة الخديوية عام ١٨٩٢ ، بأن أرادت أن تقتطع شبه جزيرة سيناء من مصر فاعتزمت فى مايو ١٩٠٦ مد سكة حديدية من معان الى العقبة ، ولمـا كان ذلك يعنى وجود قوة جديدة لتركيا على حدود مصر مما يؤدى الى تهديد مركز بريطانيا فى مصر فقد اهتم الانجليز بالأمر وأرسلوا ضابطا كبيرا عهدوا اليه بوضـع نقط عسكرية على طول الخط من العريش الى العقبة باعتبار أنها من أملاك مصر ، ولكن الجنود التركية احتلت موقع طابة ، وهو على بعد ثمانية أميال غربى العقبة ، ونتيجة لذلك حدث خلاف شديد بين تركيا وانجلترا

---

(٦٨) اللواء : فى ٢٧ مايو ١٩٠٧
(٦٩) الرافعى : المرجع السابق ، ص ٣٥١
(٧٠) نفسـه : ص ٣٤٨

ظهرت فيه انجلترا بمظهر الدولة الحامية لمصر ، اذ طالبت تركيا باسم مصر أن تجلو عن طابة (٧١) ، وأرسلت لها انذارا تطالبها بالجلاء عن طابة فى ظرف عشرة أيام والا ستكون النتائج وخيمة للغاية ، ونتيجة لذلك أبرق السلطان الى الخديو يطلب منه التفاهم مع مختار باشا فى المسألة ، وكان رد عباس بأنه ليس لديه ما يضيفه سوى استمرار التمسك بحدود رفح — العقبة .

وبعد أسبوع من الانذار أخذت قوات الأسطول البريطانى تستعد للتحرك الى طابة ، كما أعدت بريطانيا جزءا من أسطولها للذهاب الى المضايق والقيام بمظاهرة بحرية مما جعل الدولة العثمانية تسلم بمطالب الانجليز فقررت الجلاء عن طابة ، ولم يمض وقت طويل حتى تشكلت لجنة تركية مصرية أخذت فى تخطيط الحدود بين البلدين (٧٢) فعين « أوين بك مدير قسم المخابرات وابراهيم فتحى باشا مندوبين من طرف الحكومة الخديوية للتوجه الى العقبة والاجتماع مع المندوبين العثمانيين لتحديد التخوم المصرية فى شبه جزيرة طور سينا وقد خول للمندوبين المصريين السلطة المطلقة فى هذا الشأن ورافقهما بعض مستخدمى مصلحة المساحة (٧٣) » .

وقد تتبع المصريون النزاع التركى الانجليزى فوقفت بعض العناصر الوطنية بجانب الأتراك وأبدوا تأييدهم لموقفهم وأنكروا تدخل بريطانيا فى المشكلة فكتبت اللواء تهاجم موقف انجلترا فى مقال تحت

---

(٧١) الرافعى : المرجع السابق ، ص ١٩٧

(٧٢) الأهرام : فى ١٩٧٩/٧/٢٠ مقال للدكتور يونان لبيب تحت عنوان « قراءة تاريخية فى حادثة تعيين حدود مصر الشرقية » .

(٧٣) محفوظات مجلس الوزراء — نظارة الحربية . محفظة رقم ١/د مرسومات محفظة مجموعة ١١ حربية تحت عنوان « تلغراف وارد من الباب العالى بخصوص طابه بتاريخ ٢٤ يناير ١٩٠٦ » .

عنوان « أنصر أخاك ظالمـا أو مظلوما [٧٤] » كما كتب مصطفى كامل موضحا أنه ليس لانجلترا أى صفة شرعيـة أو رسـمية تعطيها حق الدفاع عن مصر ضد الدولة العثمانية [٧٥] ، وهاجمت المؤيد موقف الانجليز من الأزمة فى مقال لها بعنوان « كيف يزداد حب الدولة العلية فى مصر وكيف ينمو بغض الانجليز [٧٦] » كما أرسل مصطفى كامل الى جوليت آدم موضحا اسـتياءه من تدخـل الانجـليز فى مسألة العقبة [٧٧] ودعا الى جلاء الانجليز عن مصر .

أما الخديو عباس الثانى فقد وقف سرا بجانب السلطان فى هذه الأزمة مع أنه ساير الاحتلال فى الظاهر ، ويؤكد ذلك أن الانجليز حصلوا على صور البرقيات المتبادلة بين الخديو والآستانة ، وكانت كلها ضدهم مع أن الخديو كان يظهر عكس ذلك معهم ، فلما اطلع عليها ملك انجلترا قال كنت أظن أن الخديو معنا ولكنا أصبحنا نعرف أنه يظهر لنا غير ما يضمر لذلك فلم نعد نثق به ، ونتيجة لذلك خسر الخديو عضـدا قويا ضد كرومر [٧٨] .

كما كان لموقف جريدته اللواء المؤيد لتركيا أكبر الأثر فى تفكير أحمد لطفى السيد فى انشاء جريدة مصرية تنطق بلسان مصر وحدها دون أن يكون لها ميل خاص الى تركيا أو الى احدى السلطنتين الشرعية أو الفعلية فى مصر [٧٩] .

ونتيجة لتراجع الأتراك فى الأزمة تداعى الركن الثانى من أركان الدعوة التى كان مصطفى كامل يستند عليها وسقط كل أمل للمصريين

---

(٧٤) اللواء : العدد ٢٠٢٦ فى ١٣ مايو ١٩٠٦.
(٧٥) اللواء : فى ٢٢ أبريل ١٩٠٦ تحت عنوان « مسئلة طورسينا » .
(٧٦) المؤيد : العدد ٤٨٦٠ فى ١٢ مايو ١٩٠٦
(٧٧) على فهمى كامل : المرجع السابق ، ص ٢٣٧
(٧٨) أحمد شفيق : المرجع السابق جـ ٢ . قسم ٢ ، ص ٨٢ — ٨٧
(٧٩) هيكل : المرجع السابق ، ص ٥٩

فى معونة تركيا [٨٠] ، فكان هـذا درسا للحركة الوطنية المصرية أظهر لها مرة ثانية أنه لابد من أن تعتمد مصر على نفسها ، ولا جدوى من انتظار المساعدة من أى دولة أخرى .

حادث دنشواى ودوره فى انعاش الحركة الوطنية :

كان لهذا الحادث أثر بالغ فى انعاش الحركة الوطنيـة واهتزاز مركز الاحتلال ، وخلاصته أن بعض الضباط الانجليز — من كتيبة كانت فى طريقها من الاسكندرية الى القاهرة عسكرت فى قرية كمشوش التابعة لمديرية المنوفية — أرادوا الترويح عن أنفسهم بصيد الحمام فذهب خمسة منهم الى بلدة دنشواى التابعة لمركز شبين الكوم وصحبوا معهم جنديا مصريا ومترجما [٨١] ، وفى أثناء ذهاب الجندى الى بيت عمدة القرية ليبلغه بوصول الضباط الانجليز ، دخل الضباط ضيعة أحد الملاك لصيد حمام وجدوه واقفا على جرن محمد عبد النبى مؤذن القرية ، ومع أن أحد الفلاحين نبه الترجمان بأنه فى السنة الماضية جاء جماعة من الانجليز واصطادوا الحمام ، ولا يصح أن يتكرر ذلك هذه السنة فان أحد الضباط أطلق رصاصة انحرفت عن هدفها مما أدى الى اشتعال النار فى جرن محمد عبد النبى مؤذن القرية [٨٢] ، ونتيجة لذلك حاول بعض الأهالى انتزاع البنادق من الضباط فحدثت مشادة أطلق خلالهـا الضباط أعيرة نارية أصيب من جرائها سيدة تدعى أم محمد وشـيخ الخفراء الذى كان قد حضر ومعه بعض الخفراء مما أدى الى زيادة ثورة الأهالى فشددوا هجومهم على الضباط وحاولوا انتزاع أسلحتهم وضربهم ففر منهم اثنان هما بول وبوسـتوك اللذين جريا فى اتجـاه معسكرهم فأصيب الأول بضربة شمس أودت بحياته ، وفر الآخر حيث

---

(٨٠) هيكل : المرجع السابق ص ٥٩ .

(٨١) أحمد رشاد : المرجع السابق ، ص ٢٠١

(٨٢) نفسـه : ص ٢١٢

أبلغ قيادته بالحادث فقدمت دورية لانقاذ الضباط فصادفت الضابط بول ، وقد أحاط به الأهالى عند « سوق سرسنا » حيث سقط مغشيا عليه ، ونقلوه الى مبنى صغير فى السوق حيث قدموا اليه الماء ، وحين اقتربت منهم الدورية فروا مما أدى الى اعتقاد أفرادها أنهم قتلة بول فطاردوهم وفى أثناء ذلك عثروا على أحد الفلاحين — سيد أحمد سعيد — مختبئا فى حفرة الطاحون فظنوا أنه هو القاتل وانهالوا عليه ضربا بكعوب البنادق والسونكى حتى هشموا رأسه .

ولما علمت سلطات الاحتلال بالحادث صعدت من سياسة الارهاب وطلبت تقديم المتهمين للمحكمة المخصوصة برئاسة بطرس غالى بصفته قائما بعمل ناظر الحقانية وعضوية أحمد فتحى زغلول رئيس محكمة مصر الابتدائية ، وثلاثة من الانجليز ، وقد عقدت المحكمة جلساتها يوم ٢٤ يونيه فى صيوان كبير يسع حوالى ثلاثة آلاف شخص دعى فيه الأعيان والعمد من مديرية المنوفية والمديريات التى حولها لمشاهدة الجلسات [٨٣] ، وقد استمرت جلسات المحكمة ثلاثة أيام ، وبالرغم من ثبوت أن المشاجرة كانت بسبق اصرار ، وأن وفاة الضابط الانجليزى كانت نتيجة ضربة شمس فقد درست المحكمة القضية ولم تعط للمتهمين الاثنين والخمسين فرصا للدفاع عن أنفسهم الا ثلاثين دقيقة فقط ليقولوا ما عندهم [٨٤] .

وفى الجلسة الأولى قرأ الهلباوى الاتهام وطالب بمعاقبة المتهمين بأشد العقوبات [٨٥] ورغم تقارير الأطباء بأن وفاة الضابط بول كانت نتيجة ضربة شمس فان الهلباوى اعتبر أن المتهمين هم الذين عرضوه لضربة الشمس بعد ضربه ، لذلك اعتبرهم قتلة .

---

(٨٣) دار الوثائق : مذكرات ابراهيم الهلباوى ، ص ٧٧

(٨٤) جوليت آدم : انجلترا فى مصر ، ص ٢٣٧

(٨٥) عن تفاصيل مرافعة الهلباوى . انظر : المقطم فى الاربعاء ٢٧ يونيه ١٩٠٦

وقد حكمت المحكمة باعدام أربعة من القرويين شنقا وهم حسن على محفوظ ويوسف حسين سليم والسيد عيسى سالم ومحمد درويش زهران والأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين هما محمد عبد النبى المؤذن وأحمد محفوظ والأشغال الشاقة لمدة ١٥ عاما على أحمد محمد السيسى والأشغال الشاقة لمدة ٧ أعوام على ستة من المتهمين والجلد خمسين جلدة والحبس مع الشغل لمدة عام على ثلاثة والجلد خمسين جلدة على خمسة ، كما عزل عمدة دنشواى .

وقد نفذت الأحكام علنا فى قرية دنشواى فى ٢٨ يونيو أى بعد أسبوعين من الحادث [٨٦] واستغرق ذلك ساعة بين عويل النساء وصراخ الأطفال ووجوم الرجال وكان أول الذين شنقوا هو حسن محفوظ ، وكان بيته على مسافة خمس مترات من المشنقة وعلى سطح منزله وقفت حرمه وبناته وأولاده وحفيداته وأولادهن من حيث استطاعوا أن يبصروه ولما رأوه يدنو من المشنقة ناحوا فلما سمع عويلهم تكلم قائلا « لعنة الله على الظالمين [٨٧] » .

واذا تفحصنا أسباب هذا الحادث والأحكام التى صدرت على المتهمين نخرج بالنتائج التالية :

١ — ان المعتدى انما هم الانجليز لأنهم فاجئوا قرية آهلة بالسكان ليصطادوا الحمام كما لو كانت قرية مهجورة لا سكان فيها .

٢ — ان بعض الأهالى حذروا الضباط من خطورة اطلاق النار ولكنهم لم يأبهوا لذلك التحذير .

٣ — لا يمكن للاهالى — وقد رأوا احدى نسائهم تسقط جريحة والنار تشتعل فى جرن القمح ، واصابة شيخ الخفراء وآخرين برصاص

---

(٨٦) محمد رشاد عبد العزيز : حادث دنشواى ، ص ١٤ — ٢٢
(٨٧) بلنت : فظائع العدالة الانجليزية . ترجمة المؤيد ، ص ٦٨ — ٦٩

الانجليز — أن يقفوا مكتوفى الأيدى دون أن يدافعوا عن أهلهم وبلدتهم (٨٨) .

٤ — ان أحكام المحكمة المخصوصة تجافى العدالة لأن أغلب أعضائها من الانجليز ، بمعنى أن الانجليز جعلوا من أنفسهم حكاما وخصوما فى آن واحد .

٥ — أثبت تقرير الطب الشرعى أن الضابط المتوفى انما مات لاصابته بضربة شمس وذلك لأن الوقت كان صيفا ودرجة الحرارة ٤٣ درجة .

٦ — ان الدفاع عن المتهمين لم يكن من القوة والجرأة بحيث يتناسب مع خطورة القضية وأهميتها سواء من وجهة النظر الوطنية أو من وجهة نظر أداء واجب الدفاع قضائيا ، فقد التمس المحامون الرحمة ، وفوضوا أمر المتهمين الى المحكمة كأن التهمة ثابتة عليهم (٨٩) .

٧ — كانت المحاكمة شبه صورية لأن النية كانت مبيتة على الانتقام فلم تستغرق المحاكمة سوى ثلاثة أيام ، وقبل أن تنهى المحكمة اجراءاتها صدر الأمر الى مخازن بولاق لاعداد المشانق والآلات الخاصة بالجلد وارسالها الى دنشواى (٩٠) .

نتائج الحادث :

١ — كان لهذا الحادث أكبر الأثر فى ايقاظ الأمة المصرية ، فبعد هذه المأساة كادت الأمة المصرية تستسلم لليأس لولا دوى صوت

---

(٨٨) شحاته عيسى : الكتاب الاسود للاستعمار البريطانى فى مصر ص ٩٧

(٨٩) محمود كامل : اشهر القضايا المصرية . القاهرة — كتاب اليوم ص ١١٥

(٩٠) شحاته عيسى : المرجع السابق ، ص ٩٨

مصطفى كامل الذى بدد سحب اليأس وأحيا شعور التضامن القومى بين المصريين حتى أصبحت كافة البلاد المصرية تغلى بشعور سياسى مصطبغ بنزعة عدائية للاحتلال (٩١) كما فقد المصريون كل أمل فى العدالة التى يتشدق بها الانجليز ، وقد عبر قاسم أمين عن أثر هذا الحادث فى نفوس المصريين فقال « رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبا مجروحا وزورا مخنوقا ودهشة عصبية بادية فى الأيدى والأصوات» كان الحزن على جميع الوجوه حزن ساكن مستسلم للقوة ، مختلطا بشىء من الدهشة والذهول ، يرى الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات متقطعة وهيئة بائسة منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين فى دار ميت ، كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف فى كل مكان من المدينة (٩٢) » .

٢ — يعتبر هذا الحادث حدا فاصلا بين عهدين ، عهد اطمأن فيه الانجليز الى ثبات مركزهم فى مصر ، وخصوصا بعد أن أطلقت فرنسا لهم العنان ، والعهد الآخر هو يقظة الشعور الوطنى وتبديل يأس المصريين الى أمل واطلاع الرأى العام الأوربى والانجليزى على ما يرتكبه الاحتلال فى مصر من مآس ، وعلى مقدار العدل الذى كان الانجليز يفتخرون بتحقيقه فى مصر (٩٣) .

٣ — عودة الخديو عباس الثانى الى صفوف الحركة الوطنية وعودة العلاقات بينه وبين مصطفى كامل وقد أوضح محمد فريد ذلك بقوله « لما حصلت مسألة دنشواى كاتب مصطفى كامل الخديو بواسطة أحمد شفيق باشا .. ثم سافر الى لوندرة وقام بحركة ضد كرومر وخطب هناك خطبة كبيرة فى جمع من الكبراء(٩٤) » .

---

(91) Little, Tome. Egypt. London 1958 pp. 111 - 112.

(٩٢) الرافعى : المرجع السابق ، ص ٢٠٧

(٩٣) عبد الحميد الكاشف : تاريخ الحزب الوطنى تحت زعامة محمد فريد — رسالة ماجستير غير منشورة .

(٩٤) مذكرات محمد فريد : الجزء الاول — القسم الاول ، ص ١.

٤ — اعتبر المصريون أن أحكام دنشواى القاسية كانت اجراء انتقاميا ، لذلك تركت هذه الحادثة جرحا لا يندمل فى ذاكرة الفلاحين المصريين (٩٥) واثارت كراهيتهم للانجليز بصفة عامة .

٥ — كان من نتائج دنشواى ازدياد قوة الحركة الوطنية التى يتزعمها مصطفى كامل ، وانضمام كثير من المترددين الى صفوف الحركة الوطنية ، فهتف الفلاح وابنه وامرأته من وراء المحراث وفى طريق القرية وعلى سطح الدار باسم مصطفى كامل (٩٦) وتقربوا منه وبذلك انضم الى حركة مصطفى كامل الفلاحين بعد أن كانت تقتصر على المثقفين مما أربك سياسة الاحتلال (٩٧) .

٦ — استغل مصطفى كامل هذا الحادث للتشهير بالسياسة الانجليزية واثارة الرأى العام فى أوربا عامة وانجلترا خاصة على قسوة ما اتخذ من اجراءات ، فما أن سمع بالحادث وكان وقتذاك بباريس حتى كتب فى جريدة الفيجارو مقالا فى ١٦ يوليه ١٩٠٦ تحت عنوان « الى الأمة الانجليزية والعالم المتمدين » روى فيه حقيقة الحادث وهاجم المحكمة المخصوصة ، وما أصدرته من أحكام ، واستنكر الطريقة التى نفذت بها الأحكام مما أحدث دويا كبيرا وأثار الضمير العالمى (٩٨) وجعل من دنشواى مأساة عالمية عرف بها العالم المتمدين كله ، ويعتبر بدء حملة مصطفى كامل ضد الحادث من فرنسا تكتيكا بارعا حيث كانت الأرض مألوفة لديه ، ومهيأة لدعوته (٩٩) كما أن الصحف الانجليزية الحرة أيدت مصطفى كامل فالتربيون

---

(95) Chirol, V. The Egyptian Problem p. 93.

(٩٦) محمد مصطفى الهبياوى : مصر فى ثلثى قرن بين الماضى والحاضر . القاهرة ١٩١٩ ، ص ٣٢

(٩٧) د. محمد مصطفى صفوت : مصر المعاصرة ، ص ٨٦

(٩٨) المصرى : مذكرات الخديو عباس الثانى فى ١٩ مايو ١٩٥١

(٩٩) د. المسدى : دنشواى ، ص ١١٤

The Tribune علقت على مقالة مصطفى كامل فى الفيجارو بمقالة طويلة طلبت فيها « وجوب معاملة المصرى معاملة وقار ، وأن تمنح مصر حكومة مستقلة [١٠٠] » .

ولما كتب مصطفى كامل الى بلنت يعرب عن رغبته فى الذهاب الى لندن لايضاح القضية المصرية أمام الرأى العام البريطانى شجعه بلنت على ذلك فاتجه مصطفى كامل الى لندن مستعينا بخبرة الخديو ، وهناك تعرف على كثير من النواب الانجليز وكبار الكتاب والصحفيين ، وعقد اجتماعا حضره بعض أعضاء البرلمان الانجليزى ومنهم المستر روبرتسن الذى أثار القضية فى البرلمان .

وقد حاول ادوارد جراى وزير الخارجية البريطانية استغلال الحادث للتشهير بالمصريين حيث وقف فى مجلس النواب وتكلم عن التعصب الاسلامى فى مصر ، وطالب النواب بألا يشغلوا أنفسهم بالمسألة المصرية حتى لا يضعفوا سلطان الحكومة فيها [١٠١] ، وقد أدى ذلك الى استياء مصطفى كامل فطلب من فخرى باشا القائم بأعمال الخديو فى مصر أن يدحض تهمة التعصب الدينى التى وجهها جراى الى المصريين [١٠٢] .

كما أوضح مصطفى كامل بطلان هذا الاتهام قائلا انه لا يوجد مسلم متنور واحد يظن لحظة واحدة أنه من الممكن اجتماع الشعوب الاسلامية فى عصبة واحدة ضد أوربا ، وأن الذين يقولون ذلك اما جاهلون أو راغبون فى ايجاد هاوية بين العالم الأوربى والمسلمين [١٠٣] ، وقد اضطرت أحاديث مصطفى كامل الى تراجع

---

(١٠٠) على فهمى كامل : المرجع السابق ، ص ٢٤٧

(١٠١) جوليت آدم : المرجع السابق ، ص ٢٣٩

(102) Alexander : The Truth about Egypt London 1911. p. 49 - 50.

(١٠٣) جوليت آدم : المرجع السابق ، ص ٢٤٣

جراى عن موقفه فذكر أن ما حدث فى مصر ليس مرجعه التعصب بمعناه الدينى وانما بمعناه السياسى (١٠٤) .

ومما سبق يتضح أن زيارة مصطفى كامل لبريطانيا قد أوضحت مدى حقيقة الأوضاع فى مصر ، وقد أدى ذلك الى حدوث مشادات كلامية فى مجلس العموم البريطانى بين وزير الخارجية وبين أعضاء المجلس من الايرلنديين والراديكاليين ، وحزب العمال ، وقد وقف مصطفى كامل وبلنت خلف الايرلنديين (١٠٥) بينما ساند الخديو وبعض رجاله مثل الشيخ على يوسف الراديكاليون (١٠٦) .

٧ — شهرت الصحف الوطنية وخصوصا اللواء بالطريقة التى نفذت بها أحكام دنشواى كما كان لخطباء المساجد دور فى التأثير على الرأى العام وايضاح المظالم التى حاقت بفلاحى دنشواى .

٨ — تراجع الحكومة البريطانية عن تأييد سياسة كرومر ورأت أن التضحية بشخصه أفضل من ضياع مصالحها فى مصر (١٠٧) ومن ثم أنهت حكم كرومر واستبدلت بسياسة العداء للخديو سياسة التهدئة وعدم التشدد (١٠٨) التى اتبعها جورست ، وقد اعتبر الحزب الوطنى سقوط كرومر ظفرا وطنيا كبيرا (١٠٩) .

٩ — الاتفاق على تأسيس الحزب الوطنى وجريدتى ليتندار ، L'Etendard Egyptien والاستاندارد The Egyptian Standard وذلك لشرح وجهة النظر المصرية أمام الرأى العام الأوربى ، وقد وعد

---

(104) Blunt : My Diaries, Vol 11 p. 158 - 159.

(105) Ibid. pp. 154 - 155.

(١٠٦) المصرى : مذكرات الخديو عباس الثانى ، فى ١١ مايو ١٩٥١

(١٠٧) احمد شفيق : المرجع السابق جـ ٢ ، ص ١١٧

(١٠٨) دار الوثائق : مذكرات سعد زغلول . كراس رقم ٦ ص ٢٥٠

(١٠٩) جوليت آدم : المرجع السابق ، ص ٢٦٦

الخديو بالمساعدة فى المشروع [١١٠] كما أوعز سرا الى بعض الأغنياء بالمساعدة ، مما أدى الى تضايق كرومر وانتقاده لهذا العمل ثم مقابلته للخديو لاستيضاح الموقف ، ولكن الخديو أنكر ذلك وذكر أنه لم يتقابل مع مصطفى كامل ولم يعده بالمعاونة [١١١] .

١٠ — حاول الانجليز اجتذاب العناصر الوطنية الى جانبهم فطلب كامبل بانرمان رئيس الوزراء البريطانى من مصطفى كامل ترشيح ٣٢ اسما لتعيينهم فى ادارة شئون مصر وكان سعد زغلول ضمن قائمة المرشحين [١١٣] .

١١ — أدت أحداث دنشواى الى اتساع دائرة تأثير مصطفى كامل على الجماهير فكثرت اضرابات الطلبة ، واتسع انتشار الصحف الوطنية، وازدادت حركة الاتصال بين الجماهير وقادة الحركة الوطنية ، وشارك الأقباط فى موجة النقد الموجهة ضد الاحتلال ، وبذلك زادت هذه الحادثة من الوحدة بين المسلمين والأقباط [١١٣] .

١٢ — المطالبة بالغاء المحكمة المخصوصة لأنها والعدل ضدان لا يجتمعان كما اتضح ذلك من محاكمات دنشواى [١١٤] .

١٣ — بدأت انجلترا والعالم الأوربى يعرفان أن الرغبة فى الحرية

---

(١١٠) مذكرات محمد فريد : الجزء الاول . القسم الاول ، ص ٢

(١١١) احمد شفيق : المرجع السابق جـ ٢ ، ص ١٠٣

(١١٢) جوليت آدم : المرجع السابق ، ص ٢٥٩

(١١٣) مصطفى النحاس جبر : سياسة الاحتلال تجاه الحركة الوطنية ص ٢١

(١١٤) دار الوثائق : محافظ عابدين . ديوان خديو — محفظة رقم ١٢ التماسات جماعية « عريضة استخلاص واسترحام الى الجناب العالى الخديو من حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية » .

والاستقلال لم تكن وليدة عدد قليل من المصريين ، وانمـا هى رغبـة الجماهير العريضة من الشعب المصرى .

وهكذا كانت أحداث دنشواى سببا فى تغيير السياسات والمفاهيم لدى كافة الأطراف فقد شدت من أزر الحركة الوطنية وأعادت الخـديو الى صفوفها كما جعلت الانجليز يغيرون من سياستهم فى مصر مما كان له أثره على الأحداث بعد ذلك .

obeikan.com